الصراع الفكري في تركيا (*)

عرضه وتلخيص

للأســـتاذ محمد محمد علي

إن التفاعل بين الأفكار الإسلامية والغربية موضوع على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للعرب فضلا عن الأتراك الذين احتلوا مركز الصدارة في العالم الإسلامي خمسة قرون ...

اتصل الأتراك بالإغريق ، بعد دخولهم الإسلام في أوائل القرن الحادي عشر ، ثم عن طريق الفلاسفة ، وفي السنوات الأولى من العهد الإسلامي كان الأتراك في شك من نجاح الإسلام المطرد . بيد أن مقدرة الدولة العربية على تنظيم شئونها الاقتصادية والاجتماعية وقفت أمامهم ، ثم إن « شخصية » الإسلام الواقعية والحازمة لاءمت المزاج التركي . ولقد دافعوا في يوم من الأيام بحرارة عن دينهم الجديد .

ويرى البيروني — أكبر رياضي القرن الحادي عشر — أن الحضارة الإسلامية كانت امتداداً للحضارة اليونانية . ومع ذلك فيجب أن نقرر أن المؤثرات اليونانية كانت ضعيفة ، إذ كتب الفلاسفة وناقشوا المشكلات الفلسفية واللاهوتية ، لكن الفكر الإسلامي لم يتقدم إلا بين الجماعات المعارضة وبين هؤلاء الأحرار الذين اشتهروا في تاريخ الإسلام مثل المعتزلة أو العقليين .

ولعل الفارابي — الذي لا يخفي أصله التركي — أحد الفلاسفة الإسلاميين الذين حاولوا شرح الأفكار الإسلامية كما جاءت في القرآن مع فلسفة أرسطو وأفلاطون . فقد كان أول فيلسوف إسلامي أعطى أهمية كبرى للأفلاطونية الحديثة في الفلسفة الشرقية ، كما كان أول من عرض مشكلة العلاقة بين الروح والعقل . وجاءت أعمال الغزالي في القرن الثاني عشر مكملة لأعمال الفارابي . وتطورت الروحانية حتى الأزمنة الحديثة واتخذت في النهاية شكلا مغايراً ، وتميزت بتغلب العاطفة على العقل ، ثم فقدت طابعها الفاسق .

بلغ الفكر الإسلامي هذا الطور في القرن الثالث عشر حينما سيطر السلاجقة على هضبة آسيا الصغرى ، وهم سلالات الأتراك العثمانيين وأجداد سكان تركيا الحاليين . وكان يدرس في مدارسهم الفقه والإلهيات فحسب ، وتشكلت الدراسة دائماً بطابع القرآن الكريم والسنة الشريفة . وفي النصف الثاني من القرن ظهر الشاعر الصوفي والفيلسوف الكبير جلال الدين الرومي[1] فندد بالجهل الذي خيم على الناس تجاه المسائل الفلسفية . ومن الواضح أن العلوم العقلية والفلسفة اليونانية في مظهرها الحقيق لم تكن قد ظهرت بعد حيث يقطن الأتراك اليوم .

وفي القرن الخامس عشر ، بعد تكوين الامبراطورية العثمانية بقرن ونصف ، كان الفكر الإسلامي لا يزال متخذاً الطابع المدرسي من دراسة الأدب والفقه ؛ ولئن كانت تناقش الفلسفة والعلوم العقلية وأفلاطون وأرسطو ، فإننا لا نلمح أي أثر للروح الفلسفية الانتقادية التي ميزت الفلسفة اليونانية . وفي ذلك الوقت كان الشاب الفتى لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره : محمد الفاتح قد اتصل بجيرانه الأوربيين . وقد دخل القسطنطينية عام ١٤٥٣ على أنقاض الحضارة الغربية في الشرق . واهتم السلطان الفتى بالمدرسة الفلسفية اليونانية التي كانت أساساً لجميع الأفكار في العصور الوسطى في غربي أوربا ، وبلغ اهتمامه بدراسة اللاهوت حداً جعله شغوفاً بالمسيحية وكانت رغبته في الواقع هي الدراسة المقارنة للدينين السماويين والميتافيزيقا ، وذلك ليوجد الاختلاف بين العقل والروح . كان يحاول أن يخلق تفاعلا وتداخلا بين الحضارتين الإسلامية والغربية ، على أن يكون للنظرة الانتقادية المحل الأول .

لكن ينبغي أن نقرر أن هذه الجهود لم تكلل بالنجاح ، وأن تركيا عادت يوماً إلى جمود العصور الوسطى الذي استمر حتى

(*) ملخص مقال الأستاذ عبد الحق عدنان أديفر المنشور في عدد يولية سنة ١٩٤٧ من مجلة الشرق الأوسط التي تصدر في واشنطن أربع مرات في السنة . والأستاذ رئيس تحرير الطبعة التركية من دائرة المعارف الإسلامية . وهذا المقال الذي نعرض ملخصه اليوم كان قد تقدم به لمؤتمر الشرق الأدنى الذي عقد في جامعة برنستون بالولايات المتحدة من ٢٣ — ٢٥ مارس ١٩٤٧ .

(١) راجع الدراسة التحليلية التي كتبها الأستاذ عبد الوهاب عبد الحافظ في العدد ٧٩٥ من الرسالة .

القرن التاسع عشر بل والعشرين ، فى الفترة مابين فتح القسطنطينية ومعاهدة كارلوتز ١٦٩٩ وصلت الجيوش التركية إلى وسط أوربا وأنشأت علاقات مع الأمم الغربية . غير أن هذه القوة العسكرية عجزت عن تكوين صلات فكرية بين الشرق والغرب . بل إن النزعة الحديثة فى عصر النهضة عادت القهقرى أمام روح الجمود التى سادت فى البلاد الإسلامية .

وبلغت تركيا شأواً كبيراً من التوسع فى القرن السادس عشر ، إبان حكم سليمان الكبير . ومع ذلك لم يتقدم التفكير الفلسفى والعلمى خطوة واحدة مع التقدم السياسى فى عصر المجد والعظمة هذا . وقد لاحظ الأستاذ « كريبر » أنه ليس من الضرورى أن يتفق العصر الذهبى لحضارة مع التفوق والرقى لوطنها فبعد هذا التوسع لم تمنح الفرصة لتطور النهضة فى تركيا أمام النزعة التقليدية فى الفكر الإسلامى . وقد عبر جتراق القرن السابع عشر كاتب جلبى عن يأسه من الأحوال التى أطاحت بالمعارف الإنسانية من معاهد التعليم التركية : « وعلى ذلك سينظر الناس إلى الكون بعيون الثيران ! » . ويوضح ذلك أن نظام كوبرنيكس ذكر لأول مرة عام ١٦٨٥ فى الترجمة التركية للأطلس الأعظم Atlas Magor .

ويمكن القول إن عام ١٧١٦ تقريباً يعين بدء الاحتكاك بالفكر الغربى ، عند ما كان هناك تجديد وإصلاح فى الجيش التركى ؛ إذ أدخلت الرياضيات الحديثة فى برامج المدرسة الهندسية العسكرية . وفى عام ١٧٢٨ أسس الكاتب التركى إبراهيم متفريقا Muteferrica أول مطبعة ، وبدأ ينشر ما يؤلفه ويحرره عن الحضارة والعلوم الغربية .

ولما شبت نيران الثورة الفرنسية ظهر اتجاه علمى جديد . إذ أعجب السلطان سليم الثالث بالحركة الفكرية السياسية — فى العالم المتمدن — التى جذبت انتباهه إلى الحضارة الغربية . ففى أوائل القرن التاسع عشر فتحت مدرسة طبية حديثة .

ثم جاء عام ١٨٣٩ فبدأ عهد إصلاح جديد ؛ هو عهد « التنظيمات » أو تنظيم الإصلاح . وقد عم تأثيره كل نواحى الحياة السياسية والاجتماعية . وبالنظر فى هذا الاحتكاك بين التفكير الغربى والتفكير الإسلامى فإنه يلوح للباحث أن لا بد من وجود تفاعل وتداخل بين وجهات النظر . إنما هذا التقدم لم يظل قائماً ، لأن طبيعة الدولة الأوتقراطية والدينية ، تعارضت مع تبادل الآراء واحتكاك الحضارات . بل إن هذه الفترة التى استمرت حتى الثورة التركية الصغرى ١٩٠٨ امتازت بالرغبة فى المحافظة على المظهر الدينى للاسلام أمام تيار العلوم الحديثة . حتى أن الكتاب المحدثين الذين درسوا فى الخارج ، لم يترددوا فى الذود عن الأفكار الدينية البحتة ، والمعارضة للحقائق العلمية . على أن هؤلاء لم يؤمنوا بما كانوا عنه يدافعون ؛ إنما دفعهم إلى عملهم هذا ما ظهر من ضرورة الإبقاء على النظام القديم . وفى أواخر عهد عبد الحميد الثانى ، كانت موجة العداء للفكر الغربى شديدة ، بفعل ثورة ١٩٠٨ ، إذ أخرجت كلمة « حكمة » من القواميس بأمر الحكومة ! وبالرغم من كل هذا فقد كانت الأفكار الغربية تنتشر . وقد ترجم أحمد مدحت كتاب ج . و . دراپر . تاريخ الصراع بين الدين والعلم . وفى معرض نقده لأفكار المؤلف ، أكد المترجم أن ليس هناك معارضة للعلم فى الإسلام .

ولئن كان المثقفون فى عهد التنظيمات قد حافظوا على العقلية الشرقية ، فإنهم اقتبسوا الجانب الفنى من الحياة الحديثة ، واستطاعت قلة منهم التوفيق بين المعتقدات الاسلامية والعلم الحديث . فكانت الجمعية العلمية العثمانية (١٨٩٧ — ٩٨) المعهد الوحيد الذى كان مشغوفاً بالأفكار الغربية ، إذ جمعت بين المثقفين الأتراك الذين يعرفون لغة أوربية على الأقل ، وأخرجوا : « المجلة العلمية » meimua i funun أول نشرة تركية يستطيع المرء أن يطالع فيها أبحاثاً رائعة . وقد اتخذوا وجهة نظر فلسفية علمية ، ولم يلقوا بالا إلى الجمود الدينى للعلماء الرسميين [علماء الرسوم] Ulema i rusum ولسوء الحظ لم تعمر هذه الجمعية طويلاً وذهبت معها مجلتها . وباختفائها صادرت الحكومة كل الانتاج الفكرى الفلسفى . وفى نهاية عهد التنظيمات لا يكاد الباحث يعثر على أى أثر لاحتكاك الأفكار الشرقية والغربية فى تركيا . ومع ذلك فإن غزو التفكير الغربى كان سائراً إلى الأمام بفضل المدرسة الأدبية التى عرفت باسم Servet i funun ومجلتها

وقامت الثورة التركية الصغرى فى ١٩٠٨ وامتد لهيبها إلى النواحى السياسية ، وتبع ذلك نشاط ثقافى ، فأدخلت الفلسفة

وعلم الأديان المقارن فى دراسات كلية الآداب بجامعة اسطنبول ومهدت الحرية السياسية الطريق لحرية التعبير وأصبح فى الامكان نقد الأديان . وفى أول العهد الدستورى ترجمت كتابات وآراء بعض الماديين فى القرن التاسع عشر مثل لدفيج بخنر ، وإرنست هيكل كما كثرت المناقشات حول آراء فولتير وروسو وباقى الانسكلوبيديين .

كان الصراع الفكرى على أشده — وإن لم يكن واضحاً ، واتخذ كل جانب موقفاً عدائياً تجاه الآخر. وفى وسط هذه المعركة قام الاجتماعى التركى زيا جوك ألب بدور الوسيط بين الجماعات المتحاربة ، وحاول أن يوفق بين التفكير العلمى الغربى وبين التفكير الإسلامى الدينى . وهو كتلميذ مخلص لدوركهيم قد ميز بين المدنية Civilisation والحضارة Culture . ورأى أن تركيا ينبغى أن تقتبس من المدنية الغربية على أن تحتفظ بشخصيتها القومية . ولطالما نصح مواطنيه بألا يهملوا الإسلام وحضاراته ولا يقفوا الطرف عن المدنية الغربية . ولئن كان واضحاً فى إعلانه عن ضرورة الاقتباس من العلوم والفنون الحديثة ، فإنه كان غامضاً فى مسألة الفلسفة . رأى أن يكون للأتراك فلسفة قومية لكنه لم يحدد ما يجب أن تكون عليه هذه الفلسفة ، إذ كان متردداً بين آراء دوركهيم الاجتماعية وفلسفة برجسون الروحية . إلا أنه لم يعمل على إعادة الوفاق بين الاتجاهين ؟ لأن هذا كان عملا شاقاً .

لقد كان لتعاليم زياجوك ألب تأثير عميق على تلاميذه وأصدقائه أعضاء جمعية الاتحاد والترقى الصغرى . وفى رأيه أن قانون الأسرة الذى وضعه من قبل فقهاء المسلمين لا يجوز إجراء تعديل فيه . وكان لسان هذه الحركة : مجلة جمعية الاتحاد الترقى yeni Mejmua التى ظهرت رغم طابع الدولة الدينى — التى كان يرأسها الخليفة صاحب السلطتين : الدينية والزمنية .

غير أن أسوأ خطر وقع فيه زيا جوك ألب هو ترجمته كلمة علمانى laic بـ (لا دينى) ، الأمر الذى أدى إلى نشر العداوة بين شيوخ المسلمين .

وقد عبر عن الاتجاه الإسلامى فى ذلك الحين مجلة « الصراط المستقيم » التى عرفت بعد باسم « سبيل الرشاد » والتى سبت جام سخطها على زعماء الحركة التحريرية التى قادها زيا جوك . وامتازت هذه الفترة من تاريخ تركيا بتغييرات الحكومة الفجائية وبأعمال المعارضة التى كان من هدفها السياسى تحريك الأتراك المسلمين ضد حكومة الاتحاد والترقى وذلك بتفسير محاولة الجمعية فى الإصلاح بأنها إلحاد فى الإسلام .

وبعد عام ١٩١٢ لم تمكن هناك فرصة للنشاط الثقافى بسبب حروب طرابلس والبلقان ثم أوربا . وكانت الحكومة التى أسستها قوات الاحتلال قد قضت على كل العواطف الدينية بين الناس حتى تقضى على بوادر الحركة التحريرية والاستقلالية . إذ تطورت هذه الحركة أخيراً ، وأصبحت منظمة قوية حالفها النجاح بعد أربع سنوات من اليأس . وليس من شك فى أن الأتراك — باهتمامهم بهذا الكفاح — لم يكن لديهم فرصة لمناقشة المسائل الثقافية .

وأنشأت الحكومة التركية الجديدة فى أنقرة ، وأطاحت بالسلطنة عام ١٩٢٣ وتركت الخليفة فى اسطنبول بغير سلطة ولا قوة ، ثم ألغت الخلافة بعد ذلك بعامين ، مع المحاكم الشرعية وكل المعاهد الدينية فى أنحاء البلاد . وصيغ الدستور الجمهورى بالصبغة العلمانية ، وذهبت جهود المدافعين عن الإسلام مع الريح أمام تشدد الجمهورية فى التصريح بهذا التفكير . وكانت التيارات الغربية قوية جارفة ، لدرجة أنه كان يصعب على المرء أن يطلق عليها تفكيرا ، بل هى « تقاليد رسمية للالحاد » وبتفسير لغة الأستاذ جب الخيالية ، يقال إن تركيا قد أصبحت مقبرة جيلة ... !

ولم تتردد الجمهورية فى أن تعلن أنها حامية العلوم والمدارس الفكرية ، وحاولت أن تجعل الدراسة فى جميع المعاهد على أسس الخير والحق والجمال ! وظهر الجيل الجديد بعد عشرين عاماً من غير أن يتذوقوا تعاليم الدين طعما . واليوم يحتل الفكر الغربى الجديد محل الفكر الإسلامى القديم . وليس فى الإمكان أن نحدد تاريخاً لظهور النزعة الحديثة مع التداخل بين الأفكار الإسلامية والغربية فى تركيا ، فليس هناك تفاعل حقيق ، إنما هناك طغيان للأفكار الغربية .

وفى ديسمبر ١٩٤٦ تقدم ناشبان فى الجمعية الوطنية — أثناء